النفط في الشرق الادنى

١ — تاريخ النفط

ورد ذكر النفط في اقدم التواريخ التي في أيدينا فما جاء عنهُ في التوراة بهذا الاسم او باسماء اخرى كالحُمَر والكُفر والقار والزفت والزيت ما يأتي : —

جاء في سفر التكوين في بناء برج بابل (١١ : ٣) « وكان لهم الحُمَر بدل الطين » . وهذه الابراج البابلية لا تزال آثارها باقية الى يومنا وهي مبنية إما بالآجُرّ او باللبن وطينها الحُمَر اي القُفر البابلي وهو القير يؤتى به من هيت على الفرات . وفي التكوين (١٤ : ١٠) « وفي غَوْر السِدِّيم آبار حُمَر كثيرة » ويراد بغور السديم غور اريحا ولا يزال الحمر معروفاً هناك وهو قُفر اليهود او قُفر اليهودية . وفي سفر التثنية (٣٢ : ٢٣) « وزيتاً من صَوَّان الجلمود » . وفي سفر أيوب (٢٩ : ٦) « والصخر يفيض لي انهاراً من الزيت » وهذا كلهُ يشير الى النفط اي زيت الصخر

وفي التكوين في وصف الفُلك (٦ : ١٤) « واصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعلهُ مساكن واطلهِ من داخل ومن خارج بالقار » ولا يزال العراقيون يغيّرون هذه القاف واحدها قُفّة وهي مراكب مستديرة مصنوعة من عيدان الطرفاء والتوت والصفصاف . وفي سفر الخروج في ذكر ولادة موسى (٢ : ٣) « ولما لم تستطع ان تخفيه بعدُ أخذَت لهُ سَفَطاً من بردي وطلتهُ بالحُمَر والزفت وجعلت الولد فيه ووضعتهُ بين الحيزُران على حافة النهر » . وهذا يشبه ما جاء عن ولادة سَرجون الاول ملك اشُّور قال « وضعتني في قُفّة من الحيزُران واقفلت بابها بالقار » (معلمة التوراة) [1] فهذه الشواهد ما عدا الاخير منها ورد فيها الحُمَر والكُفر والزيت بهذه الالفاظ عينها بالعبرانية مما يدل على قدمها وعلى كونها سامية

اما النفط فقد ورد ذكرهُ في سفر دانيال (٣ : ٤٦) وهذا العدد ليس في النسخة العبرانية قال « ولم يزل خدّام الملك الذين القوهم يوقدون الاتُّون بالنفط والزفت والمُشاقة والزَرجون » . وهو يشير الى قصة الفتية الثلاثة شدرخ وميشخ وعبد نجو

وورد ذكر النفط في سفر المكابيين الثاني (١ : ١٩ الى ٣٦) قال « فانهُ حين

(١) Encyclopedi Biblica

أجلي آبؤنا الى فارس اخذ بعض الكهنة من نار تفتح سراً وخبأوها في جوف بئر لا ماء فيها وحافظوا عليها بحيث بقي الموضع مجهولاً عند الجميع . وبعد انقضاء سنين كثيرة حين شاء الله ارسل ملك فارس نحميا الى هذا البعث اعقاب الكهنة الذين خبأوا النار لا لباسها الا انهم كما حدثونا لم يجدوا ناراً بل ماء خاثراً فامرهم ان يغرفوا ويأتوا به ولما أحضرت الذبائح امر نحميا الكهنة ان يضحوا بهذا الماء الحشب والموضوع عليه فصنعوا كذلك ولما برزت الشمس وقد كانت محجوبة بالغيم اتقدت نار عظيمة حتى تعجب الجميع » الى ان قال « فشاع ذلك وأخبر ملك فارس ان الموضع الذي خبأ فيه الكهنة النار حين جلائهما قد ظهر فيه ماء وبه طهّر الذين مع نحميا الذبيحة » الى ان قال « وسمّاهُ الذين مع نحميا نفطار اي تطهيراً ويعرف عند كثيرين بنفطاي »

وذكر هيرودوتس النفط في اردريقة التي هي قيرآب بخوزستان قال (٦ : ١١٩) « قرب اردريقة بئر يخرج منها ثلاث مواد مختلفة القير (اسفلت) والملح والزيت فيأخذون دالية[1] يعلّقون بها سُعْناً مكان الدلو فاذا نزل السُّعن في الماء رفعهُ رجل وصبّهُ في حوض يجري منهُ الماء الى حوض آخر ثم ينعقد القير ويجمد الملح ويبقى الزيت فيغرفونهُ . والفرس يسمون هذا الزيت راديتاني (كذا) وهو اسود منتن الرائحة » فهذه البئر هي الآن من آبار النفط التي للشركة الانكليزية الفارسية . وهم يستخرجون النفط منها وينقلونهُ في انابيب الى عبّادان على خليج فارس ويكررونهُ هناك »

وذكر فلوطرخس عيون النفط في كركوك قال « ان الاسكندر لما وصل الى اكبتانة (اي همدان وهو يريد كركوك) دهش لمّا رأى ناراً تخرج من نبع لا يتضب وانجبهُ نهر من النفط غير بعيد عن ذلك المكان وكان غزيراً جداً حتى كانت منهُ بحيرة والنفط شبيه بالقار الا انهُ اشدّ منهُ التهاباً وهو يشتعل من لهب النار قبل وصولها اليهِ . واراد القوم هناك ان يظهروا للملك سرعة اشتعاله فنضحوا بهِ الطريق الى منزله واشعلوه فالتهب في سرعة البرق والتهبت الطريق كلها » « انتهى ما اريد نقله عن فلوطرخس » . وفي كركوك عيون نفط كثيرة منها بئر النفط التي تفجّرت حديثاً . وهناك نار عجيبة لا تنطفىء وهي تتقد قبل ايام الاسكندر

(١) الدالية هي الشادوف في مصر والسعن نصف قربة يستقى به . والنفطة فصيحة وهي دائمة في السودان وهم يسمون نوعاً من اللفاق ابا سعن فيراب في عنقه كالسعن وسألتهم مرة لماذا تسمونه ابا سعن قالوا لانه يحمل سعنة قلت وما السعن قالوا قربة تقطع من نصفها تستقى منها وتشد فيها الدوة لحمل القربة فراجعتهم فاذا هو كما قالوا

ومن اسماء بحر لوط عند العرب البحيرة المنتنة وذلك لرائحة الكبريت والنفط فيها ومن اسمائها عند اليونان والرومان بحيرة الحمر (Locus Asphaltites) وقد ذكر ديودوروس الصقلي ان اهل الغور كانوا يجمعون الحمر ويبيعونه في مصر للتحنيط وروى ذلك بلينيوس الروماني والرحالة شو الانكليزي وشلتاي الفرنسي ولا يزال الحمر معروفاً هناك وهو حجر غير السديم الذي ورد ذكره في التوراة كما تقدم

كذلك علماء العرب كالمسعودي وابن البيطار والقزويني وغيرهم فان كثيرين منهم ذكروا القير والحمر والمومياء والنفط ووصفوا هذه المعادن وصفاً دقيقاً وكانوا يستعملونها في الطب واستعمل العرب النفط في حروبهم واول من استعمله منهم هرون الرشيد في فتح هرقلة سنة ٢٠٠ للهجرة سار اليها على اثر كتابه المشهور لنقفور ملك الروم ورماها بالنفط قال الشاعر في ذلك

هوت هرقلة لما ان رأت عجباً جوّ السماء يرمّى بالنفط والنار
كأن نيرانها في جنب قلتهم مصبّغات على أرسان قصّار

وهرقلة مدينة بالروم تسمّى الان أركلي وهي على ساحل البحر الاسود مما يلي خليج القسطنطينية المعروف بالبسفور. ونقفور هذا هو نقفور الاول وكان عربيًّا من ولد جبلة بن الايهم (١)

وقبل ايامه اي في زمن معاوية اكتشف رجل يعلبكي اسمه قالينيقس هذه النار

(١) خرج من العرب قياصرة مشهورون منهم فيليبس وكان من بصرى في حوران ثم نقفور الاول من آل جبلة وربته استيراق ثم نقفور الثاني المعروف بابن الفقاس . اما نقفور الاول صاحب الرشيد فكان قبطياً اي اسيًا ليث المالي في عهد الملكة ايريني ثم لما رأى سوء اعمالها خلعها وولي الملك مكانها . ولما كان يشرف العربية فكتب الى الرشيد بالعربية وكتب الرشيد اليه بخطه على ظهر الكتاب . وقد ورد اسمه في بعض التواريخ العربية نقفور وتفور وتكفور ونقفور والصواب الاخير وهو علم يوناني معناه المنصور وكان اسمه . اما نقفور وتفور وتكفور فكان لقباً لملوك الروم ومنه تكفور سراي في الاستانة وهو بمعنى قصر الملوك الروم والكلمة ارمنية مركبة من تاج اور اي صاحب التاج . وكان الروم يسمون آل جبلة جبلاس (Gabalas) واسمهم يلفظونها جبلة . وتولى كثيرون من آل جبلة مناصب الدولة وتقدمهم عديد في تواريخ الروم الى الفتح العثماني وقد ايامهم لا يزالون في القفار . واتفق الي مرة يوماً بين الوسكي والحراوي في زيارة الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله فرأيت وكان روي كتب فوق بابه اسم صاحبه وكان جبلاس كما يكتب الروم اسم جبلة . فاحببت ان اسأله عن اسمه واصله وكنت بملابس العسكرية فخشيت اذ يرتاب بي لانا كنا في حرب وقلت اسأله في وقت آخر . ثم خرجت من القاهرة ولم اعد اليها الا هارباً من دمشق فنسيت ساعي

المعروفة بالنار اليونانية وعرضها على معاوية رغالى في ثمنها فابى معاوية شراءها فباعها للروم فاستعملوها في رد غارة ابنه يزيد على القسطنطينية ثم في رد غارة مسلمة بن عبد الملك في زمن اخيه سليمان . والمشهور ان العرب اطلعوا على سر عملها في فتح سلانيك سنة ٩٠٤ للمسيح على ان استعمالها في فتح عمورية يدل على انهم عرفوا سرها قبل ذلك

٢ — النفط في البلاد العربية وما يجاورها

النفط في الشرق الادنى في بقعة من الارض يحدها شمالاً خط اولهُ في باكُه على بحر قزوين وآخرهُ في اضالية بآسية الصغرى ، ويحدها غرباً خط اولهُ في اضالية وآخرهُ في عدن ، ويحدها جنوباً ساحل جزيرة العرب على البحر الهندي ، ويحدها شرقاً خط من باكُه الى آخر الخليج الفارسي فيكون معظم البلاد العربية ضمن هذه الحدود . ويُظن ان النفط في هذه البقعة لا يفوقهُ نفط في الجودة والكثرة ولاسيما ما كان منهُ في ايران والعراق . والعرب تسمي الآبار التي يخرج منها النفط عيون النفط والنفاطات والنيارات ويسمون مستخرج النفط والقير وبائعهما نفاطاً وقيّاراً

ومن الاماكن التي فيها نفط او قار في البقعة التي مر ذكرها باكو والعرب تقول باكُه وباكويه وهي على الساحل الغربي من بحر قزوين . قال ياقوت في معجم البلدان « باكويه بلد من نواحي الدربند من نواحي الشروان فيه عين نفط عظيمة تبلغ غلتها في كل يوم الف درهم والى جانبها عين اخرى تسيل بنفط ابيض كدهن الزئبق

الثاني من آل حيلة . ولعله باق هناك او انه اثرى على عادة الروم فصار صاحب تجارة كبيرة في مكان آخر وعسى ان يكون ذلك . وقد كان دكانه في الطريق المؤدية الى المنزل الذي كان يسكنه الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله والسيد محب الدين الخطيب

أما تقفور الثاني فهو من ذرية رجل مسلم من طرسوس اسره الروم وحملوه الى القسطنطينية فتوفي فيها وكان من ولده بطارقة منهم الدمستق لأون فوقاس وقد اشار اليه المتنبي في قوله « اعلى من ولد الفقاس متكف » وحربوه لسيف الدولة مشهورة . فلما شاخ اعتزل الحرب وقيل ترهب وصار اسمه تقفور دمستقاً مكانه . وذكر المتنبي ترهبه في قصيدته التي مطلعها « لكل امرئ من دهره ما تعودا » وكانت عادة ملوك الروم وبطارقتهم ان يترهبوا في آخر ايامهم فما طوعاً او كرهاً . فما تقفور ابنه فكانت الحرب دائمة بينه وبين سيف الدولة الى ان عاد مرة من احدى غزواته ظافراً ومعه ايوفراس اسيراً فلما دخل القسطنطينية حمله الروم ملكاً عليهم . ثم ما لبث ان اغتاله البطريق يوحنا بن الشمشيق الارمني وكان تقفور يحبه محبة الآباء لابنائهم وقد تفقه وربّاه وعلمه فنون الحرب وجعله بطريقاً ولما ولي الملك جعله دمستقاً مكانه فندر به وقتله وهو راقد في مضجعه وقيل كان ابن الشمشيق ابن اخته

لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً مبلغ قياسها مئتي الارش . وحدثني من اثق به من التجار انهُ رأى هناك ارضاً لا تزال تضطرم ناراً واحسب ان النار ستلت فيها من بعض الناس فهي لا تطفأ لان مدتها معدنية »

وقال المسعودي في التنبيه والاشراف الصفحة ٦٠ « البحر الخزري هو بحر الخزر ومنهم من يسميه البحر الخزراني لاتصاله ببلاد خوارزم من ارض خراسان وعليه ايضاً الموضع المعروف بباكُه وهي النقاطة من مملكة شروان مما يلي الباب والابواب ومن هناك يحمل النفط الابيض . وهناك آطام وهي عيون النيران تظهر من الارض وفيه جزائر مقابل النقاطة فيها عيون للنيران كثيرة ترى في الليل على مسافة نائية . وقد ذكرنا في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر اخبار سائر الآطام مما في المعمور من الارض كالطمة سقلية واطمة وادي برهوت من بلاد الشحر وحضرموت واطام البحر الخزري والباب والابواب واطام الخديجان بين بلاد فارس والاهواز تُرى بالليل من مسيرة اربعين فرسخاً واطمة اربوجان مما يلي الشيراوان من بلاد ماسبذان وهي المعروفة بحمة ترمان مما يلي سنجلان وذلك يُرى على اربعين فرسخاً من بغداد على طريق البندنجين وابراز خرزوز »

وقال في مروج الذهب (٢ : ٢٥) باكُه وهي معدن النفط الابيض وغيره وليس في الدنيا والله اعلم نفط ابيض الا في هذا الموضع وهي ساحل مملكة شروان . وفي هذه النقاطة آطمة وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الاوقات تضطرم الصحناء . ويقابل هذا الساحل في البحر جزائر على نحو من ثلاثة ايام من الساحل فيها اطمة عظيمة تصفر في الاوقات في فصول السنة فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء كاشخع ما يكون من الجبال العالية فتضيء الاكثر من هذا البحر ويرى ذلك في مئة فرسخ من البر . وهذه الاطمة تشبه باطمة جبل البركان في بلاد صقلية من ارض الافرنجة الى ان قال « وبعدها اطمة وادي برهوت وهي نحو بلاد اسفار وحضرموت من بلاد الشحر وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمان وصوتها يسمع كالرعد من اميال كثيرة تقذف في قعرها بحجر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء » انتهى ما اريد نقلهُ

وذكر في المجلد ٣ : ٦٧ من طبعة اوربا جزيرة صقلية وسمى الجبل الذي فيها بالبركان والاطمة وفسر الاطمة « بعين النار التي تنبع من الارض » وذكر أطمة

الترمان في الشيروان وقال « هي اطمة عجيبة لا يستطيع ردم الماء على اطفائها ودفنها لشدة قوتها وسلطان نارها وهي احدى عجائب العالم »

والاطمة عند العرب عين النار ومراد خرجت هذه النار من بركان كما في اطمة صقلية او من غازات خلقية مشتعلة كما في باكو وكركوك واضاليا . ولم ترد الاطمة بهذا المعنى في ما عثرت عليه من كتب اللغة وذكرها دوزي بفتح فسكون بمعنى جبل النار وقال لعلها من اطمى باليونانية وهو الدخان ووضع بعد قوله اشارة استفهام مما يدل على تردده في الامر . وفي مادة أطم بالعربية الفاظ تدل على النار والاحتراق منها الاطيمة وهي موقد النار او التنور المضرم والعامة في بغداد تسميها الطشة . ومنها تأطمت النار اي ارتفع لهبها (تاج العروس) ومثل مادة أطم أتن والنون والميم يتبادلان . ومثلها عتن ومنه العثان اي الدخان . ومن مادة أتن الاتون والعثان من اصل سامي لا اصل يوناني وان جبل اتنا بصقلية وهو بركانها المشهور من اصل سامي وفي الفينيقيين سموه بهذا الاسم وربما كان من اطمى باليونانية بمعنى دخان فان الفاظاً كثيرة باليونانية والعربية متشابهة وهي من لغة البشر قبل تفرقهم بعد الطوفان اي بعد ذوبان الثلج في العصر الجليدي وكان ذلك منذ اثنى عشر الف سنة وكان البشر قد هلكوا في الاصقاع الشمالية وازدحم من بقي منهم في مصر وجزيرة العرب والعراق والهند وجزائر المحيط الهندي وكانت لغاتهم متشابهة في بعض الالفاظ ثم ذاب الثلج وأخذ البشر يرتحلون شمالاً فنقلوا الفاظاً كثيرة معهم لذلك ترى كثيراً من اساطير اليونان وآلهتهم والفاظهم تشبه ما عند السامين من الالهة والالفاظ والاساطير

ومرّ الرحالة ماركو بولو بباكو في اواخر القرن الثالث عشر وذكر عيون النفط فيما قال « في اقاصي بلاد الكرج عين ينبع منها الزيت فيخرج منهُ في اليوم ما يملأ مئة سفينة . وزيتها لا يؤكل وانما يصلح للوقود ولدهن الابل الجرباء . والناس يأتون من الاماكن البعيدة ويجمعونهُ لانهُ لا زيت غيرهُ في تلك البلاد »

وذكر الرحالة يوناس هانواي نيران المجوس في رحلته الى باكو سنة ١٧٥٤ قال « ان النار التي يسميها المجوس بالنار الدائمة هي من عجائب الكون . وهي تخرج على عشرة اميال الى الشمال من باكو بشرق وهناك معابد قديمة يقال انها بيوت النار ورأيت الهرابذة[1] يعبدون النار في بيت منها وكان عددهم بين الاربعين والخمسين ، وقد جاء

(١) عبدة النار والموبد هو بيدهم

هؤلاء المساكين من بلادهم لزيارتها . وقرب المسجد شقّ في الصخر عمقهُ نحو قدمين وطولهُ ست اقدام وعرضهُ ثلاث تخرج منهُ نار دائمة الاشتعال وهي لا تختلف في لونها ولطافتها عن نار المصباح لكنها اكثر منها ضياء واذا هبت الريح ارتفع لهيبها الى علوّ ثماني اقدام واذا سكنت انخفض عن ذلك ويقول الفرابذة انهُ لا يمكن دفنها واذا اطفئت اوسدّ منفذها فانها تخرج من مكان آخر . والارض هناك على مسافة ميلين او اكثر اذا كشف التراب عنها وأُدنيت منها جمرة متقدة فالمكان الذي يكشف التراب عنهُ يشتعل . اما اذا نقل التراب الى مكان آخر فانهُ لا يشتعل . واذا اخذت قصبة او انبوبة من الورق وغرزت احد طرفيها في التراب وادنيت جمرة من طرفها الآخر خرج منها لهيب ولم تحترق . والقوم هناك ينيرون منازلهم ويطبخون طعامهم بهذه النار » قال السر بُخرتن ردود وعنهُ اخذت ما تقدم انهُ وأنهم يطبخون آجُرّهم بهذه النار في سنة ١٨٨٤

وهذه الآطام التي ذكرها المسعودي هي عيون النار كما قال وهي معروفة في باكو الى يومنا ولعلها نضبت الآن لكثرة ما أُخرج من نفطها . وكان الفرس يعبدونها فلما فتح العرب بلاد فارس ابطلوا عبادتها وهدموا بيوت النار ورحل من بقي على المجوسية من الفرس الى الهند وهم لا يزالون فيها ولكنهم لم ينقطعوا عن بيوت النار في باكو فكانوا يزورونها سرًّا خوفاً من المسلمين الى ان ابادوها منذ ثلاثمائة سنة او اكثر وكانوا يأتون اليها من الهند . ولم تنقطع عبادتها في باكو الى سنة ١٨٨٠ . ورأى السر بفرتن ردود بيتاً من بيوت النار سنة ١٨٨٤ ولم يكن فيهِ نار وانما كان يخرج غاز من شقوق في أرضهِ وكان يسهل اشعالهُ . وكانت باكو من املاك ايران فالحقتها بطرس الاكبر بروسية سنة ١٧٢٣ طمعاً في نفطها ثم استرجعتها ايران وعاد الروس واستولوا عليها سنة ١٨٠٦ ومنحوا امتياز استخراج النفط منها لرجل اسمهُ موزويف فرع منهُ اموالاً طائلة ثم نزع الامتياز سنة ١٨٧٤ واستبدلت ضريبة تدفع للحكومة . وإنّ ابار باكو هذه المجوبة من اعاجيب الدنيا منها بئر فتحت سنة ١٨٨٣ كان يخرج منها في اليوم الواحد عشرة آلاف طن من النفط الاسود اي خمسمائة الف صفيحة ربحها في اليوم احد عشر الف ليرة انكليزية . وهناك ابار اخرى لا تقل عنها

اما قيراب بخوزستان فقد مر ذكرها والنفط فيها ملك الشركة الانكليزية الفارسية وهم يستخرجونهُ من مكان يقال لهُ سيدان نفطون اي ساحة النفط وينقلونهُ في انابيب الى عبّادان كما مرّ ويقطرونهُ هناك

بغداد امين معلوف